استريوغرافية المغرب القديم

- **نقد الرواية التاريخية:**

إن تاريخ المغرب القديم لم يكتبه أهل البلاد الأصليين؛ إذ هو تاريخ تضمنته دواوين أدبية بعيدة عن أهله وأرضه، دواوين لا تخرج عن الميراث الإغريقي واللاتيني، نتعرف فيها على المغاربة الأصليين من خلال ما يقوله عرضا أدباء وجغرافيون ورحالة أجانب. فنحن نستقي معلوماتنا عن البربر القدماء عبر واسطتين قرطاجية أو روما نية(لاتينية)؛ فكان هذا من الخلل ما يجعلهم "يظهرون لنا وكأنهم أشخاص ثانويين، يشاهدون من بعيد ما يقع على أرضهم من المآسي"، وكل هذا ترك بصمات واضحة ليس لها مقابل في كل ما كتب عن تلك الحقبة وأولئك الناس.

فإن أسماء كـ: سترابون وبولبيوس وناستيوس وسالستيوس وأبيانوس، كلها أسماء شهيرة في الساحة الاستريوغرافية القديمة، لكن عيبها أنها بعيدة إلى حد كبير عن الساحة المغربية، فهي إما أنها لم تنزلها قط، أو نزلتها بالعرض في أزمنة محدودة لم تعايش أهلها ولم تعرفهم، أو أنها رأتها بمنظور غيرها ممن لا يؤتمن نقله فضلا أن يؤتمن حكمه.

إن القارئ لتاريخ بلاد المغرب من مصادره الإغريقية واللاتينية ليصدم لأول وهلة بتلك الثانوية التي اصطبغ بها البربري، والحدث التاريخي المغربي في ذهنية مؤلفيها. فأنت إذا قرأت خبر فلان وفلان المغربيان فلن تقرأه إلا كواحد من أتباغ القائد فلان والعظيم فلان الاغريقي والروماني. وإذا نظرت في الحدث الفلاني الواقع ببلاد المغرب أو المشترك فيه المغربي، فلا تراه إلا تبعا للأثر الفلاني الإغريقي أو الروماني. فالمؤرخون القدامى يسوقون أخبارا طويلة عن المغربي ماسينسان جاعلين منه بطل مغامرات شيقة، ليست في الواقع سوى انعكاسات لسياسة روما في المغرب، بل يرويها بولبيوس المؤرخ الإغريقي ضمن تاريخ عائلة سكبيون التي يعترف بالولاء لها الزعيم النوميدي والمؤرخ لها على حد سواء.

ثم نقرأ حرب يوغرطان عند سالستيوس فنجدها لا تروي قصة هذا البطل، بقدر ما تصف صراعات أحزاب الجمهورية الرومانية. فقد يكون هذا البربري قد خطط فعلا لتوحيد البربر وطرد الرومان، لكن يستحيل أن نجد لهذه الغاية الشريفة صدا عند مؤرخنا الروماني؛ فقد كان همه فيما كتب إصدار الأحكام القاسية على معارضيه من ساسة روما في طور انحطاطها، يقوا عبد الله العروي:" لا نقول أن سكوت سالستيوس يدل على عدم وجود أي مشروع توحيدي وتحريري في ذهن يوغرطان، بل نقول إن الوثيقة المكتوبة، وهي وثيقة رومانية، لا يمكن أن تسوق الأخبار من وجهة نظر مغربية، وهذا أمر بديهي".

ثم إن من عيوب المصادر الأدبية القديمة الرتابة في الأحكام التاريخية وقراءة الواقع التاريخي، والتأريخ له، هذا إذا لم نعتبره تقليدا مطلقا لما كتبه الأوائل. فنحن نستقي ثورة تاكفرناس أساسا عند تاستيوس، الذي لا ينازع في عبقريته كمؤرخ؛ لكن يحس القارئ لتاريخه استوحاءه أحكامه التاريخية من مؤلف سالستيوس في حرب يوغرطان؛ فيظن المؤرخ المعاصر أن لا فرق بين الثورتين، ويستنتج أن أحوال البربر قارة، وتاريخهم راتب راكد. وهنا نتساءل: هل يصح أن نأخذ ميل المؤرخين القدامى إل تقليد سابقيهم برهانا على أن المجتمع البربري نفسه لا يعرف التغيير؟

ثم إننا في جانب الآخر، لا نكاد نجد في الرواية التاريخية القديمة إلا مصادرا مشكوك فيها ألقت لنا أحكاما مشكوك فيها؛ فأكثرها إن لم نقل كلها روايات عن القواد الرومانيين في أثناء حروبهم، والذين يسمون أعمالهم بالعقل والتروي، وأعمال خصومهم المغاربة بالعفوية والاضطراب، وأوصاف أخرى كلها داخلة في باب الذم إن لم تكن من باب الاحتقار، إننا في الحقيقة لا نعرف بجلاء ويقين أهداف ودوافع هؤلاء الثوار البربر، لكننا " لا نقبل بدون نقاش أحكام قواد روما وورثتهم المعاصرين".

ونزيد على ذلك، ألا نضع تلك الروايات إلا مضمومة بالشك بها، لا من حيث صدق الرواية ولا من حيث صواب الأحكام؛ فالخصم لا يقبل كلامه في خصمه إلا مستبينا، وهذا ينطبق على الراوي وناقل الرواية على حد سواء، لاتفاقهما في أصل الحضارة؛ فأنى يؤتمن تيتوس ليفيوس وهو يبدأ تاريخه الكبير موضحا مشروعه فيه، وهو الاحتفال بعظمة روما أو كما قال:"التذكير بعظام الأعمال لأول شعوب العالم".

- **نقد المستحتات الأثرية**: ويفرح الباحث -مع ضعف هذه المصادر- إذا ما علم أنه في مقابل هذه الوثائق الأدبية، يوجد وثائق غير أدبية هي المخلفات الأثرية لأهالي بلاد المغرب، عسى أن يجد فيه ما افتقده من مصداقية في الأولى؛ لكن سرعان ما يخيب أمله، إذ هذه الوثائق تنقسم في أصولها قسمين:

أ- فمنها ما يسهل تأريخه ثم تأويله، إلا أنها قليلة الفائدة، لا تغير شيئا من المعلومات المستفادة من الأدبيات.

ب - ومنها ما نتوقع أن نجد فيه ما غاب في الأولى من معلومات جديدة؛ إلا أنه سرعان ما تخيب آمالنا بتعارض الباحثين في معرفة حقيقتها وإدراك محتواها. ويؤكد هذا المؤرخين كامبس وكورتوا، وهما من هما في ساحة الإستريوغرافية الحديثة.

وفي جانب آخر يجد الباحث أطلالا رومانية عسكرية ومدنية ونقودا وشواهدا وأنصبا، كلها تهم المدن وتنظيمات روما السياسية والعسكرية والاجتماعية، قد حقق تاريخها وضبط. في حين بقيت الأطلال المغربية بعيدة عن ذلك، واستخيف من الخوض فيها؛ حتى قال المؤرخ كركوبنو: "هذه أطلال بربرية لا نجرِؤ على تأريخها، لكن بما أن عددها كبير جدا يحق لنا أن نعتبرها احدى عواقب الحملات التخريبية".

إن هذه الصعوبة المزعومة جرّت إلى أن يُعزى كل كشف أثري إلى الرومان، وعلى الرغم من اليقظة الحاصلة في العقود الأخيرة كردة فعل على هذا المنهج، إلا أنه لا زالت تقاليد الآداب اليونانية واللاتينية متحكمة في أذهان الباحثين، تكيف منظورهم من غير وعي منهم، وعلى الباحث أن يتنبه لذلك جيدا.

- **نقد المدارس الحديثة**: كانت الدراسات التاريخية الحديثة المتعلقة بتاريخ المغرب القديم وما قبله، إلى غاية الحرب العالمية الأولى مرتبطة بالكلاسكيات (الأدبيات اليونانية واللاتينية)؛ فكان كل من مومسن وقصال(*Gsell*) شيخ مؤرخي المغرب القديم، يتجهان إلى دراسة الحفريات المغربية بالنظر والتدقيق في المعطيات الأدبية التي بقيت تحتل المرتبة الأولى دائما، في المقاربات والمقارنات التاريخية. ثم طرأ تغير منهجي بعد سنة 1930م بدخول الساحة ليونيل بالو –الحال محل قصال- حيث تقدمت الوثيقة الأثرية على الوثيقة الأدبية.

إلا أن كلا المنهجين خضع للخلفية الإديولوجية الغالبة على زمنهما، وقد حدّ هّا من التجديد المنهجي، ودفع إلى الترويج باسم العلم الموضوعي، لتلك الأفكار المشوهة عن ماضي المغرب، تلك الإديولوجية التي نستشفها في مثل تساؤل قصال في بدايات كتابه، في قوله: "علينا أن نعرف سبب

الرخاء الذي عرفه شمال إفريقيا أثناء العهد الروماني. أهو الطقس الذي كان أكثر ملاءمة للزراعة أم هو نشاط وذكاء الإنسان؟"

وتتكرر هذه الأفكار المشوهة عن ماضي المغرب؛ فالمغاربة القدماء قد مروا مبكرا بثورة نيوليثية وبعد نيوليثية، وعرفوا آلات حجرية صقيلة ونحاسية، إلا أنهم لم يصنعوها وإنما تسلموها من جيرانهم، ا, من تجا أو من غزاة. وإن الحضارة النيوليثية هزيلة إلى حد أنها لا تستحق أن تسمى نيوليثية. ثم إن العهد الحجري الصقيل لم ينتهي في منطقة المغرب إلا سنة ألف قبل الميلاد مع مجيء الفينيقيين؛ فتعلم البربر منهم استعمال الحديد دون أن يمروا بمرحلة استعمال النحاس والبرونز!

فاذا اصطدم الباحث بنظرية **الاختزال الحضاري** هذه، فسيصطدم مرة أخرى بنظرية **التبعية الحضارية** لكامبس، القائلة بتلقي البربر الآلات المعدنية من الخارج دون أن يتعلموا كيفية صناعتها بأنفسهم! يقول مؤكدا لهذا: "إن المغرب فقد وحدته الأصلية منذ العهد الحجري الصقيل، أثناء الألف الثاني قبل الميلاد، تحت تأثير حضارات غازية مختلفة: الحضارة الإيبيرية في القسم الغربي، والإيطالية الجنوبية في القسم الشرقي، والصحراوية المصرية في الجنوب، وبقي المغرب الأوسط منطقة مرور بلا صفات مميزة".

إن قضية تلقي المغاربة الحضارة من الخارج- ليس كل الحضارة- أمر صحيح في العموم؛ إلا أنه ليس ذلك قضية مختصة به. ثم إن النقطة المهمة التي خفيت أو أخفيت هي أن المغاربة قبلوا بعض مظاهر هذه الحضارة ورفضوا بعضها الآخر. فهم لم يكونوا يوما قط قد انسلخوا عن موروثهم القديم، وإن قل كما يزعم البعض، يقول عبد الله العروي: "إن الدافع الحقيقي لموقف كامبس وزملائه هو رفض صورة الحضارة التي قبلها المغاربة عن طواعية، وبنفي فكرة التاريخ عن ماضي المغرب وإبقائه في ميدان قبيل التاريخ، يظن هؤلاء انهم سيقضون على تلك الصورة الخاصة (الإسلامية) لأنهم يتحسرون على إخفاق صورة أخرى (الرومانية)".

إننا لا نقلل من قيمة الإستريوغرافية القديمة والحديثة الوالجة في تاريخ المغرب القديم، بل نثمن سعيها، وإن كنا نتحفظ على منطلقاتها ومناهجها التي نظرت بهما إلى تاريخ شعب له أثره على الساحة الإقليمية المتوسطية القديمة، ونحذر من تلقي الرواية القديمة و الأحكام التاريخية الحديثة بالتسليم والمبايعة؛ فإن ذلك أليق بمناهج المستضعفين.